قصة مصرية

رجـــــــــــاء

— ١ —

آه . . . آه . . .

صرخة تنوقلت بين الأفواه والأسماع ، أوقفت الفتاة عند سماعها السيارة ، والتفتت ، ثم حدقت ببصرها ، ثم اكفهرت وغضبت ، ثم تركت السيارة وتقدمت بخطاً سريعة نحو هذا الذى كاد يذهب ضحية سوء تصرفه ، وقالت زاجرة : — « أنت أعمى لا ترى ؟ أم أصم لا تسمع ؟ » فطأطأ رأسه ولاذ بالصمت اعترافاً منه بالخطأ والتماساً للمعذرة لديها ، وعندئذ أدركت الفتاة علائم البؤس والشقاء منقوشة واضحة على وجه الفتى ، وفى عينيه المتكسرتين ، فمالت إليه وقالت فى رقة متناهية :

« مالك يافتى ؟ أتشعر بألم ؟ . . . » فاكتفى برفع نظره إليها ، معبراً أصدق تعبير عما تضم جوانحه من الأسى ، وكان الناس كبيرهم وصغيرهم ، جاهلهم وعالمهم ، قد اجتمعوا فى سرعة غريبة وأحاطوا بمكان الحادث فى شدة وكثرة ، وتصاعدت الأصوات وتبودلت الاشارات : بين لائم عليه ، وشاكر لها ، وبين ساخط عليها وناصر له ، ورجل البوليس ، يتكلم كما يتكلمون ، ويشير كما يشيرون . واشتدت الفوضاء ولج النزاع حتى كان يظن الرائى أن فى الأمر خطباً جللا ، وماهى الأمر من شىء ! ولم تتوان الفتاة عن دفع الفتى إلى السيارة ، وولت مسرعة رغبة فى استشارة أحد الأطباء ، وما زال الناس فى نزاعهم وصراخهم يلجون : بينما الفتى والفتاة صامتان لا يتكلمان .

— ٢ —

« ليلى » فتاة عصرية لها كل ما لفتاة العصرية من حقوق وواجبات وصفات ومميزات : فهى تقود السيارة ، وتعرف الموسيقى ، وتتدرب على ركوب الخيل ، والسباحة ، وتلعب التنس ، وتتكلم عدة لغات ، ولا تخلو ليلة لها من سهرة جميلة ، فى مسرح ، أو سينما ، أو حفل عام . هى تلتمس الحياة فى النور ، والنور فى الحرية ، والحرية فى المساواة ، والاختلاط إلى أبعد حدود المساواة والاختلاط .

« ليلى » من سلالة عريقة الحسب والنسب ، ورثت عن والدها مالا كثيراً ، وعقارات عدة ، فهي غنية واسعة الغنى . تعيش مع والدتها عيش رخاء وهناءة . ولم يكن لها من الأهل غير قريب واحد ، تحصل العلم في إحدى الجامعات الغربية . وقد وهبها الله من صفات الملاحة والحسن ماجعلها آية من آيات الحب والجمال ، وأحلها مكاناً سامياً في قلوب الرجال ، ورغم كل هذا فهي فتاة وكفى !

— ٣ —

كان الوقت قبيل الغروب ، والسيارة تنهب الأرض مسرعة في طريقها إلى الأهرام . وعند سفح الهرم الأوسط أوقفت ليلى السيارة ، ودفعت الباب فاندفع ، ثم تقدمت والفتى يتبعها في صمت وسكون ، وارتقت بضع صخور في خفة ولين ، وهو يأتي ماتأتيه من غير اعتراض أو تفكير ، حتى تخيرت مكاناً يشرف على مغرب الشمس . فجلست تتحسس محاسن الغروب ، الى أن اختفى القرص بتمامه ، فوجهت نظرها إلى الفتى ، فاذا به يقف صامتاً شاخصاً إلى الأفق المخضب ، وقد اغرورقت عيناه بالدموع ، واتشح وجهه بقناع من الخشوع الرهيب ، في مثل السكون تبادلا الحديث :

هي — لولا الظروف لكان موتك محققاً اليوم .

هو — (يصعد زفرة طويلة خفيفة) آه . .

— ما اسمك يافتى ؟ . . إن اسمي . . ليلى . .

— (برهة صمت) « رجاء » . .

— اسم جميل شائق ! . .

— للغير . . جماله للغير ياسيدتي . . . وأما صاحبه فقد دفع الثمن غالياً . هو رجاء ضائع

— ماذا ؟ أتتألم الى هذا الحد ؟ . .

— حتى الموت ... الموت ياسيدتي ... ليتك أجهزت علي اليوم ... كنت أنهيت حياتي .

— يبدو لي أن أعصابك مضطربة محتاجة إلى الراحة ، أليس لك أهل ؟

— أهل ! . . كثيرون ... كثيرون جداً . . .

— إذن فما علة بؤسك ! لو كان لي حق السؤال طبعاً .

— الأهل كثيرون ولكنهم أغنياء ونحن فقراء . . فيجهلوننا . . يجهلوني ووالدتي المعبودة وأخي الصغير ، كأنهم يخشون أن يخدش ماتحن فيه من بؤس ومتربة مايتمتعون به من الجاه والغنى . إن الحياة تعبد الفضة والذهب . والناس تجري خلف المظاهر والعظمة الكاذبة . . . والأقدار قاسية . . . فقد مر علينا زمان تنعمنا فيه بما يعدل غناهم ويفوق ، ولكن الوالد

ـ رحمه الله ـ أحب للمزيد : فضارب خسر، ثم ضارب خسر . وفي أيام ممدودة أمسينا في حالة تنفر بشر مستطير . . وحل الخراب وعمت الخسارة . . فلم يتحمل الصدمة وانتحر . ونحن في أشد الحاجة إلى رعايته ومعونته . . . أصبحت وحيداً أكفل والدتي المكينة التي أمنها الألم ، وأخي الذي عرف البؤس وهو صغير . اضطررت أن أهجر الدراسة لأعول نفسي وأعولها ، وحاولت البحث عن عمل ولكن عبثاً حاولت ، فالأزمة تمسك بالرقاب والحظ التعس يرعاها . كانت والدتي تدخر بقية من مال صرفناه ، وكانت تحفظ بعض الحلي فبعناها . وهكذا انقضى العام ونحن آملون في المستقبل ، ولا يزداد المستقبل إلا ظلمة وحلوكة ويأساً وضيقاً . هذا ، والأهل لا ينظرون إلينا بعين الرعاية ، ولا يمدون يد المساعدة والمعونة . . أظلمت الحياة في عيني بعد ما أظلمت حنايا صدري . . . وعندئذ لم أتوان عن الانتحار ، وقد سبقني إليه والدي . تخلصاً من هذا العذاب .

ـ وهان عليك ترك هذه الأم تكلى وهذا الطفل يلامين ؟ . ! !

ـ يرعاهما من نفخ فيهما الروح ، فالله خير معين .

أراك تؤمن بالله ، وتقدم على الانتحار ! كيف هذا ؟ هذا التناقض الغريب بين الإيمان والإلحاد . . لا . . لا . . لا يا عزيزي . . لا تكن ضعيف الإرادة إلى هذا الحد . . ثم . . قم فأنت رجل . . قم وتعال معي نتدبر الأمر ؟

ـ إلى أين ؟

ـ إلى منزلنا . . . حيث أعيش ووالدتي . . لندبر لك عملا .

ـ آه . . كيف ؟ . فاتنا . . .

ـ ها . . ها . . لا تقس أننا في القرن العشرين . . . عصر التقدم والمدنية . . حيا معي فسأقدمك إلى والدتي ، كسكرتير الدائرة الجديد ! ما رأيك ؟

ـ وكيف أقطع عن غيري رزقه ؟

ـ اطمئن من هذه الوجهة يا صاحب الشعور النبيل . . فقد ثبت لدينا خيانة السكرتير الأول أكثر من مرة .

ثق وكن مطمئناً . . إننا ننشد سكرتيراً على شاكلتك ، طيباً عفيفاً أميناً فاضلا .

ـ آه ! . . شكرتك منذ لحظات عند ما خلت موتى على يديك ، إذ كنت أنشد الموت ، وأما الآن فإني أشكرك ، لأنك بعثت في كياني الحياة . . . فبت أنشد الحياة .

ـ نحن أخوة يا رجاء . . . فلا شكر بيننا . . . قد وافقت نفسك نفسي . . . فلنمش معاً ، فتأخذ من تزوعي إلى الطرب والبهجة معنى الحياة ، ولآخذ من حزنك وألمك معنى الخلود .

ولكن . . .

وكان الليل قد جلبب الأنحاء بستار من الظلام ، واجترفه شعاع نور قوى يشع من سيارة تمدوق طريق الفيوم : فشع المكان وأضاء ، وإذا بالصخرة العالية يقتعدها الفتى والفتاة متعانقين ، يتبادلان قبلة العطف والحنان والركون والاطمئنان .

— ٤ —

انقضى عام وتولى ، و«رجاء» فى عمله خير ما يكون المكرتير فى أعماله ، وأحب ما يكون من عماله . توثقت العلاقات طوال هذا العام بين «رجاء» ووالدة «ليلى» ، فأصبح موضع ثقتها ، وأنزلته منزلة الابن من نفسها : وتحسنت حاله أيما تحسن ، وأخذ نجمه يبدو لامعاً خفاقاً فى سماء السعد والصعود ، وحالفه الحظ مبتسماً ، وأضحى « رجاء » فرحاً من خلال ثنايا فتاة أحلامه ، ورضاء أمه عنه ، وحب أخيه له .

قضى «رجاء» و«ليلى» هذا العام رفيقين فى الغدو والرواح ، سميرين فى الليل والنهار ، صديقين على البعد والقرب ، شريكين فى الجد والهزل . وأما الناس — كعادتهم فى مثل هذه الأحوال — فقد أخذوا ينسجون — حول الفتى والفتاة وعلاقتهما البريئة — من الأباطيل ، والقيل والقال ، ما هو دعامة لهذه الحياة ، ولكنهما لم يهتما لشىء ما ، وهذا ما يقضى به العقل لمن أراد حياة طيبة هانئة .

كانت «ليلى» تقدر الواقع وتحبه ، وشخصيتها مدعمة بهذا الحب . وكان «رجاء» يقدر الخيال ويحبه ، ونفسيته مكرسة لهذا الحب ، من هذه الوجهة تخالفا ، ومن هذا التخالف توافقا ، فبدا كل منهما فى عين زميله قوياً فى مذهبه ، معززاً بقوته ، فتعادلت القوتان وتضامنتا على الحياة بهذه الصلة : بين الواقع والخيال ، بين الطرب والألم .

العطف والحنان أول مراتب الحب ، الحب الشعرى فى النفوس الشاعرية ، الحب العاصف الذى لا يبقى ولا يذر ، وهذا الحب هو ما استحكم فى نفس «رجاء» ، يزجيه كتمانه وصبره وحياؤه من المكاشفة إلى الاسترسال فى حبه ، والتبسط من «ليلى» إليه . وكانت القبلة داعية هوى وغرام عند الفتى ، وناحية مسرة وتسلية عند الفتاة ، يفهم «رجاء» من القبلة أنها عهد وفاء ، بينما تفهم «ليلى» كما تفهم فتاة العصر ، أنها مطلب زهيد ، مادام الشباب ومادام الطالب ! وعلى هذا الأساس شيد صرح الحب بين رجاء وليلى : فكان واهياً متداعياً من البداءة .

— ٥ —

وكان البدر يتدرج من الحمرة الدامية إلى الباهتة ، فالصفرة الفاقعة ، فالبياض الفضى ، حتى

انتشر شعاعه فى الشرق منحدراً فوق الرمال ، مرتمياً الأهرام ، غامراً الأرض والسماء ، وعلى ضوء القمر بدا شبحان يتبادلان الحديث فى صوت خافت ضعيف .

هو — تذكرين ، ليلى ؟ . . على هذه الصخور وفى مثل هذه الليلة من العام الماضى ، كان لقاؤنا الأول وكانت القبلة الأولى . . . تذكرين ؟ . . أم نسيت كل شىء ؟ . .

هى — آه . . . هذا القمر . وهذه النجوم . . . على سفح الأهرام . . فوق الرمال . . . هذه الرمال . . فى هذا السكون ، هذه هى الحياة يا رجاء . . آه (تمسك بيده فينسحب عنها) .

— نعم . . . وفوق هذه الصخور عينها . . . سيكون اللقاء الأخير ، يعقبه فراق أبدى . إلى الآن يا ليلى لم أعبر لك عن العاطفة القوية الجامحة التى لا تعرف عقلا ولا قلباً . . . كنت أخشى المستقبل وأخشى الخيبة . . . وأما الآن فانى لا أخشى شيئاً . . وإنى لأصرح لك بمكنون صدرى . . . إنى أحبك . . أحبك ياليلى من كل قلبى .

— وإنى لأعطف عليك وأميل إليك . . .

— لا . . لا . . ياليلى . . . إن رضيت الكذب على نفسك ، فأنا لا أرضاه على نفسى . . إنك لا تميلين إلىّ ، وإنما تمالين السير المنادم وتبحثين عنه ، فاذا وجدتيه فى غيرى ملت إليه ومنحتيه كل شىء . . . وتضربين بى عرض الحائط . . . إنك تقابلينى باسمة وتودعينى ضاحكة ، لأنك فتاة تفهم الحياة فى الضحك والابتسام ، تنشدين البهجة حيثما حلت ، وما هذا العطف والحنان الذى تبدينه سوى مظهر من مظاهر الجبروت والقوة . . . أنت فتاة عصرية تعرف من الحب لذته ، وتجنى ثمرته من غير ألم أو عذاب ، فلا تقرين هذا الحب الشعرى القديم الذى ألاقى فى سبيله الأمرين . . . تساءلت مراراً بينى وبين نفسى عن مدى حبك لى . . . وكان الشك يغتابنى أحياناً فيكاد يزهقنى ، ثم يعودنى اليقين فأهدأ وأستريح ، ولكن . . . ظهرت الحقيقة أخيراً ، واضحة جلية ، ومؤلمة أشد الألم ، عندما حضر هذا الشاب الوجيه الذى يمت إليك بصلة القرابة ، فنسيت به الدنيا وما عليها ، هذا هو من تحبين ومن تخلصين له ، وأما أنا فانى أحببتنى فلأنى أذكرك دائماً بفضلك على وإحسانك إلى . . . آه . . ليلى . . بالله اعذرينى . . . اعذرينى . . .

— لا أعرف سبباً لثورتك هذه يا رجاء ، وعهدى بك الشاب المؤدب اللبيب . . إن قريبى هذا هو خطيبى . . .

— خطيبك ؟ . . خطيبك ؟ . . الآن قد انتهى كل شىء . . . لا سعادة فى وجود ثلاثتنا . . . فوجب الرحيل على أحدنا توفيراً لسعادة الآخرين ! . . وأولانا بذلك هو أنا . . . الغريب الدخيل .

وعندئذ غلبه البكاء فبكى ، وتقدم إليها فى رفق ولين ، وشعور غريب ، ومال عليها ، ولكنها لمحت فى عينيه نظرة مخيفة ، ففزعت منه ودفعته عنها .. فوقف لحظة صامتاً ثم تراجع إلى الوراء فى ذهول وهو يقول :— « حتى القبلة الأخيرة تحرمينى منها ؟ ثم تدعين حبى ؟ .. لا .. لا ترحمينى وإنما . » وفجأة انقطع الصوت حيث زلت قدمه فاختل توازنه وهوى إلى الأرض ، ومن ثم ارتفعت الصرخات تائهة رهيبة :—

— ليلى .. ليلى ... آه .. آه ..

— آه رجاء .. رجاء ...

ثم عم سكون رهيب وانطوى على نفسه عذاب جميل ، يحمله الهواء من بعيد ، وكأن لم يكن شىء .

— ٦ —

مات رجاء ! وأسفر التحقيق فى الحادثة عن أنها وقعت قضاء وقدراً ، فجنت الأم وطافت الطرقات فى ذهول وخبل باحثة عن ابنها ، سائلة الناس عنه فى شبه جنون ، حتى ضمها البيمارستان ، وأما الأخ الصغير الذى أبت المصائب والأحزان إلا أن تحوطه ، فقد احتفظت به أحد ملاجئ البر والإحسان ، وفى غضون هذه الحوادث تم عقد قران « ليلى » بخطيبها ، ومن ثم سافرا إلى الخارج لقضاء شهر العسل فى هناءة ورخاء ، متناسين كل شىء ماعدا سعادة الزواج وحياة الشباب .

هؤلاء ضحايا من ضحايا الحياة : من موت ، وانتحار ، وجنون ، وتشريد ، فعلينا أن نقتصد فى عواطفنا وإلا أوردتنا موارد التهلكة من حيث لا نشعر ولا نريد ، ولزاماً علينا ألا نغالى فى الحب والعطف والحنان ، فقد نصل إلى حد من لا يرحم العطف ، ولا يتقى الحب ولا يرق لحنان ، بل يقسو وينور أشد ما تكون القسوة والثورة .

أحمد كامل مرسى

الى حضرات المشتركين

ترجو الادارة حضرات المشتركين الذين لم يسددوا قيمة اشتراكاتهم أن يبادروا بارسالها رأساً إلى إدارة المجلة ولهم الشكر .

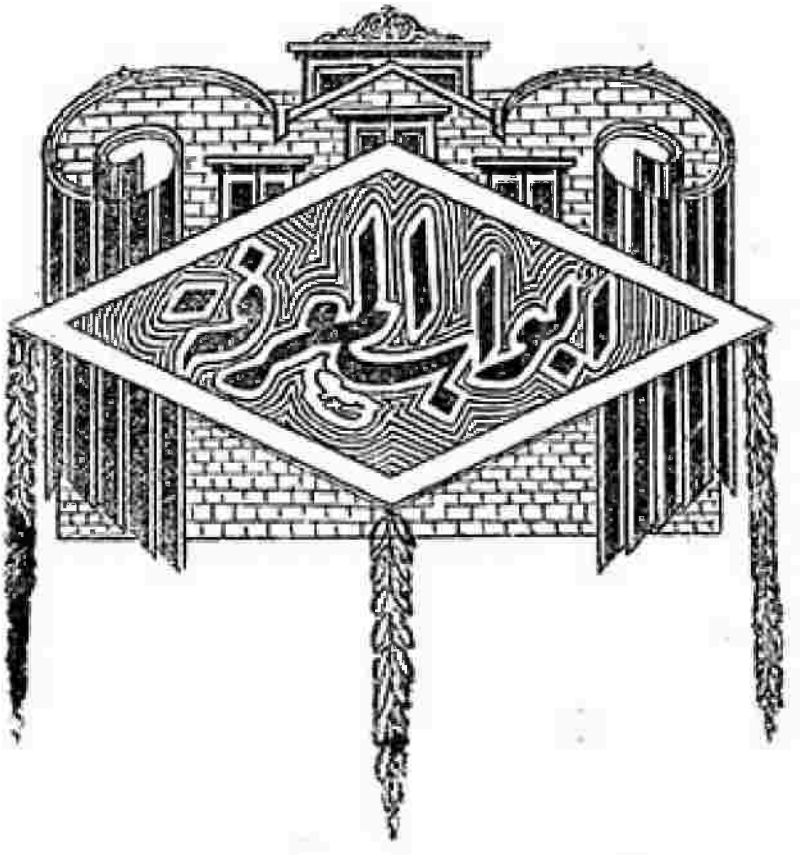
باب العزة